الصفاء الثوري من تروتسكي إلى البغدادي

إيريك والبرغ

Middle East Eye

مجموعة التمدن للأبحاث

2016

الثوار مثل الدولة الإسلامية سيضعفون إذا ما رفضوا قبول برامج حركات التحرر الأخرى، وفي المقام الأول: نضال حماس من أجل الحرية الفلسطينية.

الإعلان من قبل قائد الدولة الإسلامية (IS)، أبو بكر البغدادي، عن حضارة إسلامية جديدة على أراض إزدهر الإسلام فيها لأكثر من ألف عام مضت عبارة عن دعوة مُسكرة، رحب بها كثير من المسلمين الغاضبين والمحبطين، المتلهفين لرؤية نهاية للهيمنة الأميركية - الإسرائيلية في المنطقة. هذا يذكرنا بالإثارة الناتجة عن الثورة الروسية عام 1917، حيث استولت مجموعة صغيرة من الثوار على السلطة وأعلنت الدولة الشيوعية، التي سرعان ما أصبحت عالماً موحداً بظل العقيدة الغيرية (نكران الذات) الجديدة.

إن أوجه التشابه والتناقض بين الإسلاميين - الإخوان المسلمون مقابل السلفي / تنظيم القاعدة - والحركات الثورية اليسارية في القرن العشرين – الشيوعي مقابل التروتسكي / الماوي - غريبة ومفيدة.

خلافة تنظيم الدولة الإسلامية تلك مرفوضة من كبار علماء السنة مثل يوسف القرضاوي، الذي قال إن الإعلان " باطل بموجب الشريعة"، وكذلك قال شيخ الأزهر في مصر، عباس شومان، الذي أعلن أن "الخلافة الإسلامية لا يمكن أن تسترد بالقوة "، وبطبيعة الحال، المسؤولين السعوديين أيضاً، الأمر المتوقع فحسب. بيد أن المسلمين تعبوا من هذه الفتاوى التي لا تفعل شيئا، بشكل جدي، لدفع الظلم الذي يتعرضون له. وبغض النظر عن الخطايا التي ارتكبها أو قد يرتكبها تنظيم الدولة الإسلامية، إلا أنه يمكن لهذا التنظيم أن يعوّل على دعم ضمني من قبل كثير من المسلمين، تماما كما فعل بن لادن، وتماما كما دعم اليساريون، بشكل أعمى غالب الأحيان، حركات ثورية شرسة في القرن العشرين.

الأخلاقية الشخصية

كيف يمكن أن يكون هذا؟ في المقام الأول، وفي السراء أو الضراء، يجب اعتبار كل هؤلاء الثوريين - العلمانيين والجهاديين - "الشيء الحقيقي": ثوار ملتزمون بشكل حقيقي، غير قابلين للفساد ومستعدون للتضحية بأنفسهم لتنفيذ الأجندة الغيرية (نكران الذات). وبالنسبة لأولئك الناس الذين يعيشون في العالم الإسلامي، الذين ضاقوا ذرعاً من خنق العلمانيين القمعيين الذي يترأسون مجتمعات غارقة في الفساد، فإن هذا الأمر مهم.

حتى عندما يختارون عن غير قصد الكثير من أسلحة الإمبرياليين ويتبنون استراتيجياتهم (التوافق مع هدف الشيوعية أو تجديد الحضارة الإسلامية) فإن أخلاقياتهم الشخصية تختلف كثيرا عن تلك التي للإمبرياليين. فبينما هم يخدمون الإمبريالية عن غير قصد، كما فعل، على سبيل المثال، بن لادن والظواهري (عن طريق زرع البلبلة، وتعزيز الفوضى ونشر الموت في العالم الإسلامي في المقام الأول، وتشويه الإسلام)، إلا أن هؤلاء القادة يعززون مريديهم عن طريق

الاستقامة الأخلاقية الشخصية ونظافة الكف، تماما كما فعل الإرهابيون الفوضويون في القرن التاسع عشر واليساريون المتشددون اعتباراً من العام 1917 وما بعده.

كان بن لادن يصوم (الصيام الذي يتسبب بجفاف الفم ليوم كامل) يومين في الأسبوع طوال حياته، وعاش حياته بدون وجود الكماليات، وتخلى عن ثروته لدعم الأفراد المحتاجين والقضايا التي يؤيدها. ووفقا لمدير خلية بن لادن في الـ CIA (1996-1999) مايكل شوير، كان بن لادن "تقياً، شجاعاً، سخياً، ذكياً، كاريزمياً، صبوراً، بصيراً، عنيداً، ميالاً إلى المساواة، والأهم من ذلك كله، واقعياً ...الحروب لا تُكسب إلا بالقتل فقط". ولا يكفي عزلهم فحسب باعتبارهم مرضى نفسيين – وهو ما قد يكونوا عليه فعلا- وأن نفترض أنهم يتظاهرون بالتقوى فحسب، مهما كان تفسيرهم للتفاني مضللاً.

يشير المنتقدون للاسلاميين إلى استعدادهم للموت من أجل معتقداتهم كدليل على أنهم عدميين. "تنظيم القاعدة يفتخر بأنه في حين أننا نخشى الموت، فإنهم يتقبلونه بسرور"، و بـ "انهم لا يحترمون الحياة، ولا حتى حياتهم الخاصة". لكن هذا الاستعداد للموت لدى المرء من أجل معتقداته كان دائما أمراً معترفاً به من قبل المؤمنين من جميع الأديان على مر العصور، وكان الثوريون اليساريون ("الحرية أو الموت" لفيدل كاسترو) ناهيك عن الثوري الأميركي باتريك هنري، يؤكدون على ذلك ولفترة طويلة. وإن الحقيقة بأن اليساريين والمسيحيين أقل عرضة بكثير اليوم للتضحية بأرواحهم من أجل عقائدهم، يسلط الضوء فحسب على أن النظم العقائدية الغربية لم تعد تلهم الناس، الذين هم سعداء بالعيش حياة عرضة للخطر لكنها مريحة.

أما فيما يتعلق بالإرهاب ومعاداة الرأسمالية، فإن لـ "الإرهاب" غير الحكومي تقليد طويل، يعود إلى الفوضويين في القرن التاسع عشر على الأقل، الذين ألهموا بارهابهم جماعات معاصرة مثل بادر ماينهوف (ألمانيا)، والألوية الحمراء (إيطاليا) والطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي (الولايات المتحدة) في السبعينات.

الصفاء الإيديولوجي

التماثل الأكثر إثارة للقلق بين أنماط القاعدة / السلفية والأصوليين اليساريين مثل التروتسكيين (فقط العمال يعرفون ما الأمر) أو الماويين ("انهم الفلاحون يا أغبياء!") هو ما يتعلق بفلسطين. فقد قطع إسماعيل هنية، رئيس الوزراء في غزة، أكثر من نصف الطريق لاحتواء المتطرفين لديه الذين هم على نسق متطرفي القاعدة، وذلك بادانته مقتل أسامة بن لادن من قبل الولايات المتحدة ووصفه بأنه "شهيد" و "مجاهد عربي". (أدانت الحكومة الأميركية تصريحاته ووصفتها بأنها "مشينة".) هذا الاحترام لعدوهم الاسلامي اللدود ليس متبادلا من قبل السلفيين، وعلى وجه التحديد تنظيم الدولة الاسلامية.

في الواقع، إن معظم الحركات الجهادية السلفية اليوم ليس لديها مصلحة واهتمام في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، باعتباره أمرا ثانوياً. بل إن دعوتهم هي لمهاجمة الحكومات برئاسة مسلمين (والمدنيين من المسلمين). وكما ذكر علي

المعموري، تقول تغريدة لأحد السلفيين، "إن حكومة حماس مرتدة، وما تقوم به لا يشكل جهاداً، وإنما دفاعا عن الديمقراطية (التي يعارضها السلفيون)". ويقول آخر: "خالد مشعل (رئيس المكتب السياسي لحماس): حماس تقاتل من أجل الحرية والاستقلال. أما الدولة الإسلامية فتقاتل حتى يكون الدين كله لله ".

يدين الشيخ السلفي المصري طلعت زهران حماس ويساويها بالشيعة، بما أنها تتلقى التمويل والسلاح والتدريب من إيران وحزب الله. ويعتبر السلفيون الصراع مع حكومة حماس المزعومة وغير الشرعية بمثابة خطوة أولى نحو المواجهة مع إسرائيل. ويفضل السلفيون محاربة حماس أولا والاشتباك مع إسرائيل لاحقاً، مبررين ذلك باستئناف الصراع ضد الرِدة بظل حكم الخليفة الأول أبو بكر، وتأكيد صلاح الدين للاسلام السني على حساب الفاطميين الشيعة في القرن الثاني عشر قبل تحرير فلسطين. بل وقام بعض بعض المقاتلين في تنظيم الدولة الاسلامية، بحرق العلم الفلسطيني أثناء الاجتياح الإسرائيلي لغزة في يوليو/ تموز 2014، لأنهم يعتبرونه رمزا للقومية.

هذا الأمر يجعل أي اجتماع للعقول المناهضة للإمبريالية أمراً مستحيلاً في العالم الإسلامي. وهو ما يعني رفض أي تسويات استراتيجية مع الحركات المناهضة للإمبريالية القائمة. فعندما تكون الجماهير وقياداتها محض أيديولوجية يمكن فقط عندها متابعة تحرير أراضي المسلمين.

في حالة التروتسكيين، هم رفضوا في وقت مبكر الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين بصفته، في أفضل الأحوال "دولة عمالية مشوهة"، "دولة رأسمالية"، أو في أسوأ الأحوال، دولة فاشية، ليست أفضل حالاً من ألمانيا النازية. فبالنسبة لهم، كان الأمر الأكثر أهمية هو محاربة المرتدين (قضى إرهاب ستالين أيضا على عدد لا يحصى من الشيوعيين الصادقين باسم الصفاء). وهذا يعني أنهم سرعان ما أصبحوا غير ذي صلة، كذبابة الماشية تطن حول الجسم السياسي، إضافة إلى تعطيلهم المناورات السياسية اليسارية الجدية.

في التحالف مع العدو

بحلول الخمسينات، تخلص عدد غير قليل من التروتسكيين من يأسهم وأعادوا تكوين أنفسهم كمناهضين متشددين للشيوعية، أي رواد المحافظين الجدد اليوم. والماويون الصينيون أفضل الرأسماليين في العالم – مع استكمال التفاوت المتطرف في الدخل- ولم يفوتوا ضربة.

وبالتوازي مع السلفيين هنا أمر مخيف: السلفيون السعوديون هم التروتسكيون- الذين تحولوا الى محافظين جدد، الحصن الذي يحمي الإمبراطورية. فقد ساعد أتباعهم في مصر على تقويض جماعة الإخوان المسلمين، ودعم انقلاب 2013، ولا شك أن ذلك كان بناء على تعليمات من الرياض. ولكن أفعالهم التي لا تغتفر تتناسب ومعتقداتهم كما القفازات. إذ أن افتقارهم للحماس للنضال الفلسطيني - إلى جانب خصومهم الأكثر تشدداً في تنظيم الدولة الاسلامية – يضعهم في تحالف مباشر مع الولايات المتحدة وإسرائيل ضد الفلسطينيين.

هل يمكن أن يكون هناك أي شك بمن يعمل مع إسرائيل والولايات المتحدة لتخريب القضية الفلسطينية؟ كيف يمكن للسلفيين الانضمام إلى الصفوف مع إسرائيل والولايات المتحدة ضد حماس، ضد جماعة الإخوان المسلمين في مصر، لخنق توق العالم العربي الإسلامي إلى إعطاء الإسلاميين فرصة حقيقية للحكم؟

السلفيون واخوانهم المتعصبون في تنظيم القاعدة يستوحون، ليس من مقاصد القرآن، وإنما من ردود الفعل الطائشة ضد كل الحداثة، بينما في الوقت نفسه يستخدمون التقدم التكنولوجي لهذه الحداثة في مجال القتل والاستراتيجية العصرية بترويع المدنيين، وهما أساس الحكم الشمولي في القرن العشرين.

تماما كما كان الشيوعيون الوهميون الورثة المنطقيون للنظام الإمبريالي في القرن العشرين، البن لادنيون (نسبة لبن لادن) هم اللحظات الأخيرة للنظام الإمبريالي اليوم، ليتقاسموا بذلك خشبة المسرح مع أعدائهم الألداء الأميركيين والسلفيين / السعوديين. وقد أخذت التنظيمات التي هي على نمط تنظيم القاعدة الاستراتيجية الثورية لسيد قطب في الستينات الشبيهة بالتروتسكية إلى منحى متطرف قاتل، وأثرت سلبا على الجهود الأكثر رصانة للتجديد الإسلامي. وتماما كما لا يتحدث أحد عن "الإرهاب الكاثوليكي" في اشارة الى الجيش الجمهوري الايرلندي، فإنهم سيكونوا أكثر دقة في تسمية الإرهاب الصادر من العالم الإسلامي بـ "الإرهاب القطبي" (نسبة إلى سيد قطب)، وتسمية المفجرين الانتحاريين بالفاشيين الاسلاميين الفوضويين، أتباع "تقليد غربي لثورة فردية متشائمة لعالم مثالي بعيد المنال "وفقا لأوليفييه روي، بدلا من التشبع بالمفهوم القرآني الحقيقي للاستشهاد.

وعلى الرغم من أن السلفيين / السعوديين ينأون بأنفسهم على نحو ديني عن هذا الإرهاب، إلا أنهم مقتطعون من نفس القماش الذي تتشكل منه فروعهم السلفية الأكثر تشدداً. فهم جميعا يعيشون في عالم صفائي جدا، يذكرنا بما كان يسمى في جبهة لينين العلمانية باليسارية المتطرفة - "مرض طفولي". وقد تلاشت الحركات العلمانية العنيفة في القرن العشرين أو انضمت إلى العدو، وما لم يتمكن تنظيم الدولة الإسلامية من التحرك بسرعة للاعتراف بالنضال الفلسطيني باعتباره بالترتيب الأول في سلم أعماله، وما لم يتمكن من تعديل سياساته الاجتماعية والتطور نحو نظام اجتماعي فعال، فإنه سيندثر أيضا، على الرغم من ذلك سيكون بعد صدمة كبيرة لا طائل منها.

- اريك والبرغ صحفي متخصص في شؤون الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وروسيا. خبير في الاقتصاد وقد كتب على نطاق واسع عن العلاقات بين الشرق والغرب منذ الثمانينات. وقد عمل اريك سابقا كمستشار للأمم المتحدة ويكتب حاليا لصالح Press TV والأهرام. وهو مؤلف كتاب "ما بعد الحداثة الإمبريالية: الجغرافيا السياسية والألعاب العظمى" وكتاب " من مرحلة ما بعد الحداثة إلى مرحلة ما بعد العلمانية: عودة بروز الحضارة الإسلامية"